﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيان كيفيّة الحساب يوم القيامة بعد إقرار المُلك فيه لله تعالى

بعد أن أكّد الله سبحانه في الآية السّابقة أنَّ المُلكَ يومَ القيامة له وحدَه، لا يشاركه فيه أحدٌ غيرُه؛ ناسبَ أن يُتبعَ ذلك ببيان ما سيحدث فيه من مجازاةٍ للمؤمنين والكافرين، والعصاةِ والمُطيعين على الأعمال التي عملوها في الدّنيا، جزاءً عادلًا لا ظُلمَ فيه، سريعًا لا بُطءَ معه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَسَبَتۡۚ﴾: (كسب) أصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ عَلَى ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ. ومِنْ ذَلِكَ الكَسْبُ[2]، ويُطْلَق على ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظّ، وقد ورد في القرآن في فعل الصّالحات والسيِّئات. فمما استُعمِل في الصّالحات قولُه تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: 158]، وممّا استعمل في العكس قولُه: ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الأنعام: 70][3]، وقولُه تعالى هنا مُتناوِلٌ لهما.

2) ﴿ظُلۡمَ﴾: (ظلم) أصْلانِ؛ فالأوّلُ: الظُّلْمَةُ، والجَمعُ ظُلُماتٌ. والظَّلامُ: اسْمُ الظُّلْمَةِ، وقد أظْلَمَ المَكانُ إظْلامًا، والثّاني: وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ بزيادَةٍ أوْ بنَقْصٍ تَعَدّيًا، يقال: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا، ويُقالُ: ظَلَّمتُ فُلانًا: نَسَبْتُهُ إلَى الظُّلْمِ. وظَلَمتُ فُلانًا فاظَّلَمَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 111، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 273.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).

(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (كسب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 349.

وانْظَلَمَ، إذا احْتَمَلَ الظُّلْمَ[1]، والمعنى المحوريّ: حجبُ ما ينبغي أو ما يُسْتَحَق؛ أي: منعُه أو انتقاصُه، وهو المعنى المراد في الآية الكريمة[2].

3) ﴿سَرِيعُ﴾: (سرع) أصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على خِلافِ البُطْءِ، وسَرَعانُ النّاسِ: أوائِلُهُمُ الَّذينَ يتَقَدَّمونَ سِراعًا[3]، والمعنى المحوريّ: اختراقٌ أو امتداد بقوّةٍ ودِقّةٍ أو حِدّةٍ، وكلّ ما في القرآن من التّركيب ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هو من السّرعة ضِدّ البِطْء[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

توضِّحُ الآيةُ الكريمة أنَّه في يوم القيامة الهائل الشّديد تُجازَى كلُّ نفسٍ منَ النّفوس المؤمنة والكافرة، والبارَّة والفاجرة، بما كسبت في دنياها من خير أو شَرّ، ومن طاعة أو معصية، من غير ظُلْمٍ ولا جَوْرٍ، ولا مُحاباةٍ ولا وساطاتٍ، وأنّ هذه النّفوسَ تُعْطَى ما تستحِقُّه من ثوابٍ أو عقابٍ، في وقتٍ واحدٍ، لأنَّ الله تعالى لا يَشْغَلُه حسابٌ عن حسابٍ، ولا يحتاج إلى تفكير عند محاسبته لخلقه، بل هو سبحانه قد أحاط بكلّ شيء علمًا، كما قال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ [سبأ: 3][5].

الحسابُ يومَ القيامةِ عادلٌ لا ظُلمَ فيه، سريعٌ لا بُطْءَ معه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّةُ فصل قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ﴾ عمّا قبله:

جاءت جملة: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مفصولةً عن جُملَةِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]؛ لما بينهما من كمال اتّصالٍ يغنيهما عن الواصل اللّفظيّ، ذلك أنَّها تُنزّل منها مَنزلةَ التّابع من المتبوع، فتُبَيِّن وتُفصِّل

بيانُ أحداث يوم القيامة يُؤثِّر في نفوس المتلقّين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرع).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سرع).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 273، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 246.

ما يحدث يومَ القيامة من مجازاة للنّفوس على ما قدَّمت في الدّنيا من خير أو شَرّ، وما كسبت من طاعة أو ارتكبت من معصية[1]، ليَعملَ الحديثُ عنه عملَه في نفوس المُتلقّين.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

يـومُ الحساب والـجـزاء هو نـفـسُـه يـوم التّلاق والبُروز

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ لتعريف العهد الذّكريّ، وهي تدلُّ على أنَّ اليوم الذي تُجْزَى فيه كلُّ نفسٍ بما كسبت من غير ظلمٍ ولا جَورٍ، هو يوم التّلاق الذي يُبْعَثُ فيه الخَلقُ، ولا يخفى على اللّه منهم شيءٌ، والذي سبق ذِكْرُهُ في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ [غافر: 15 - 16].

دلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ دون غيره:

فـي تـعـجـيـل العقوبة بالدّنيا تنبيهٌ وإيـقـاظٌ للمُعاقَبين

دلّ استخدامُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على الإعلام والإفهام بامتداد أمَد المجازاةِ الوافية إليه، لا انقطاعِها بما يكون قبلَه من العقوبات البدنيّة وأنواعِ الكَرْب والشّدائد بالنّسبة للكافر، كما يُلْمِح إلى ذلك الصِّفتان الحُسْنَيان ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: 16]؛ وذلك لأنّ العقوباتِ في الدّنيا مُنَبّهاتٌ للمعاقَبين وموقظاتٌ لهم كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢١﴾ [السّجدة: 21].

دلالةُ التّعبير بـ ﴿تُجۡزَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

محاسبةُ النّاس ومجازاتُهم على الأعـمـال أمـران يَسيران على الله تعالى

في تعبير النَّظم الكريم بالفعل: ﴿تُجۡزَىٰ﴾، الموضوعِ للمُكافأة على الأعمال خيرِها وشرِّها[2]، دلالةٌ على أنّ يومَ التّلاق سيكون مُخصَّصًا لحساب النّفوس ومجازاتِها على ما قدّمت في الدّنيا من حسنات وسيّئات، وطاعاتٍ ومعاصٍ، جزاءً عادلًا لا يَشوبُه أيُّ شيءٍ منَ الظّلم. وأوثِرَ بناءُ الفعلِ للمفعول؛ ترهيبًا من الحساب والجزاء،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.
(2) الرّاغب، المفردات: (جزا).

وترغيبًا في المُداومة على المُنْجيات من شدائد هذا اليوم وأهوالِه، وللإشارة إلى سهولة الحساب والجزاء ويُسْرِهما على الله ﷻ[1].

غرض التّعبير بفعل الجزاء مبنيًّا للمفعول:

إذا كان الله هو مَن يجزي الخَلْق على أعمالهم؛ فحقيقٌ بهم أن يهابوا ذلك

بُني الفعلُ ﴿تُجْزَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ للمفعول ترهيبًا من الحساب والجزاء؛ إذِ الظّاهر أنّ المعدول عنه بإسناد الفعل إلى الله أعظمُ في التّرهيب، وذلك لوجوه؛ **أوّلها:** التّذكير بصفة ذلك الجزاء، باستدعاء قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّجم: 39 - 41]، بقرينة البناء للمفعول في الفعلين. **وثانيها:** أنّ ذِكْر المُسنَد إليه يستدعي صفاتِ الجمالِ من الوُدّ والرّأفة، كما يستدعي صفات الجلال من القهر والانتقام؛ فكان بناءُ الفعل لما لم يُسمّ فاعلُه داعيًا إلى حبس الأنفاس من حصر الفكر في الجزاء، دونَ التّعلّق بصفات جمالِ المُجازيّ سبحانَه، وأنّ رحمته سبقت غضبَه. **وثالث هذه الوجوه:** توسيع دائرة المَرْهوب من كلّ ما يُرَى يومَ القيامة ويكون، حتّى منَ العشراء والأصدقاء، والتّهييب من جمعهم للجزاء، وأنّ الملائكة وُكِّلت بهم.

نُكْتَةُ دخول ﴿كُلُّ﴾:

الحساب والجزاء سيشملان العصاةَ والمُطيعين والمؤمنين والكافرين

في التّعبير عن نائب الفاعل بـ ﴿كُلُّ﴾ في قوله: ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ دلالةٌ على شموليّة الجزاء وعمومِه كلَّ النّفوس، سواء أكانت مؤمنةً أم كافرةً، مطيعةً أم عاصيةً، بارّةً أم فاجرةً، "فلا تُتْرك نفسٌ واحدةٌ؛ لأنّ العِلْم قد شملهم، والقدرةَ قد أحاطت بهم وعمَّتهم، والحكمة قد منعت من إهمال أحد منهم"[2]، وللدّلالة على إحاطته بالنّفس الواحدة من جميع أقطارها من بابٍ أولى، ما دام يحيط

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.

بجميع الأنفس، ولبيان أنّه ما ثَمّ إلّا مكروب؛ فليكن التّعلّق للنّجاة من هول ذلك اليوم بالله وحده، ونبذِ الشّركاء والأنداد المزعومين.

نُكْتَةُ تنكير ﴿نَفْسٍ﴾ وإفرادها:

كلُّ نفسٍ ستُحاسَب بمفردها، وستُجازى على أعمالِها

جاء البيانُ بلفظ ﴿نَفْسٍ﴾ نكرةً؛ لما يُفيده التّنكير من تأكيد عموم الحساب والجزاء وشمولِهما كلَّ النّفوس، وفي التّعبير بها مفردةً دلالةٌ على أنَّ كلَّ نفس ستُحاسب حسابًا خاصًّا على ما فعلت، وستُجازى جزاءً عادلًا بما قدَّمت، ولن يحول بينها وبين الحساب والجزاء أحدٌ، كما أنّ في تنكير ﴿نَفْسٍ﴾ وإفرادِها إلماحًا بالإشارة إلى الآيات المُقرّرة لعدم قبولِ الفداء وفَرديّة الجزاء، وأنّه لا يُغني مولًى عن مولًى شيئًا، ولا يَجْزي والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئًا، وحَقّ ذلك كلّه أن يُتّقى وأن يُعمل له، وتقديم ذلك في مدد الإمهال هو ممّا يقتضي محبَّة العِباد ربَّهم، وأنّه يُحبّ العُذْرَ ويُقدّمُه قبلَ المؤاخذة، وأنّ رحمتَه سبقت غضبَه.

معنى الباء في ﴿بِمَا﴾:

كلُّ نَفْسٍ ستُجازى بالنّعيم على فعل الخير، وبالعذاب على فعل الشّرّ

الباء في ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ للسَّببيَّة[1]، وفي التّعبير بها دلالةٌ على أنَّ كلَّ النفوس ستُجازى على ما فعلت من خير أو شرٍّ في الدّنيا، جزاءً مناسبًا يومَ التّلاق، وأنَّ الذي سيتسبّب في شقائها أو نعيمها في ذلك اليوم هو الأعمالُ التي فعلتها، وليس شيئًا غيرَ ذلك، وفيه ما لا يخفى من الدّعوة إلى إحسان العمل وإصلاحه، ليكون جزاؤُه الفوزَ والسّعادةَ في الآخرة.

سِرُّ إيثار الباء على اللّام في ﴿بِمَا﴾:

الله يقيم الحُجّة على عباده وينذرُهم قبلَ أن تكون المحاسبة

إن شَوْبَ السَّببيَّة بالتَّعليل مُشعِرٌ أنَّ الأمر مُبيّتٌ لهم، فهم فيه كالمُتربَّص بهم، لا يملكون شيئًا إزاءَه، وهذا خلافُ الواقع؛ فإنَّ الله قدَّم إرسالَ الرّسلِ وإنزالَ الكتبِ وهدايةَ البيانِ بإقامة الحُجَّة وقَطْعِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

المَعذرة وبشارةِ المؤمنين، ولا يرضى لعبادِهِ الكُفر، وإنْ يشكروا يَرضَهُ لهم، وبذلك كلّه آياتٌ من التّنزيل العزيز والذّكر الحكيم ناطقاتٌ به مُنبآتٌ عنه.

معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ اسمٌ موصول، والجملة بعدَه لا محلَّ لها من الإعراب صلةُ الموصول، وأوثِر التّعبير به لدلالته على عموم الجزاء وشمولِه جميعَ الأعمال التي عملها النّاسُ في دنياهم، وعدمِ تَرْك شيءٍ منها من غير حساب ولا مُجازاة، بما من شأنه أنْ يدفع النّفوسَ إلى التّفكير والتّروّي قبلَ القيام بأيِّ عملٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا.

لن يُترَك عملٌ من أعمال الدّنيا من غير حسابٍ ولا مُجازاةٍ في الآخرة

ويجوز أن تكون (ما) نكرةً تامةً لمعنى (شيء)، ويكون المعنى: (اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بشيءٍ كسبت)، ويكون ذلكم الشّيء هو الإيمان والكفر، والمعنى عليه: أنّ الجزاء على ما دونَ الكفر داخلٌ ضِمْنَه، على نحو ما قيل: "ليس بعد الكفر ذنب"، وأنّ الجزاء على الإيمان لا يستلزم إيقاعَ الوعيدِ على ما لا يحِلّ بحقيقته وثُبوته، وكلّ ذلك فيه الإقناع بسعة رحمة الله، والإطماعِ في عفوه لِمَنْ وافى بالإيمان، والجملة على هذا - بعدُ - صفةٌ لشيءٍ الذي هو معنى (ما)، ومن فوائده أيضًا: أن الإيمان ينفع أهلَه ولو كان اقتُصر على أصله، وأنَّ الكفر يُردي أصحابَه، ولو كان مُتَقَلَّلًا منه في المعتقد.

الإيمان نافع لأهله، والكفرُ مودٍ بهم

نُكْتَةُ حذف مفعول ﴿كَسَبَتْ﴾:

في التّعبير بالفعل: ﴿كَسَبَتْ﴾ الذي يعني: عملت، من غير مفعول فيه، دلالةٌ على أنّ المُجازاة ستشمل كلَّ ما عمله الإنسانُ في الدّنيا من خير أو شَرّ، ومن حسنات وسيّئات، والمعنى: ستُجازى على ما "عملت، وهي تظنّ أنّه يفيدُها سواءً بسواء؛ فبالكيل الذي كالتْ يُكال لها"[1].

الكيلُ الذي كِلتَ به النّفوسُ في الدّنيا، سيُكالُ لها به يومَ التّلاق

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.

دلالة التّعبير بلفظ الكسب ومادّتِه:

لمّا ذُكِرَ من معاني الكسب القصدُ إليه والعَمْدُ له، والتّعلّقُ بثمرته ونشوته، والتّلذّذُ به، أو إنفاذُ غيظِه تشفيًا وانتقامًا إن كان من قبيل ما تبعث عليه القوّة الغضبيّة، ففي طي ذلك أنّ الله لا يُؤاخِذ على ما لم يُتعمَّد؛ وفيه لطائفُ تُلمح إلى ألطافٍ وسعةِ رحمةٍ تجعل تعاليمَ الإسلام وتكاليفَه داخلةً في الطّوْق، وأنَّ مَنْزِعها الوعيُ والقَصْدُ، والإرادةُ وحضورُ القلبِ.

اللـه لطيفٌ بعباده، عالِمٌ بنواياهم وأسرارهم

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ الكسب:

يُلْمِحُ حَذفُ مفعولِ الكسب إلى ما ذُكر معه المفعول؛ ليُستَحضَر ويُتذَكّرَ نحوُ قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158]، وذلك حاملٌ على أخذ الدّين كلِّه جملةً، وأن لا يُجعل القرآنُ عضين، وفيه تثويرُ الفكرِ إلى استحضار نصوصِه، كما في حديث ابن عمر: "قد عِشْنا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنا وإنَّ أحَدَنَا[1] يُؤْتَى الإيمانَ قَبْلَ القُرْآنِ، وتَنْزِلُ السّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فيتَعَلَّمُ حَلالَها وحَرامَها، وما يَنْبَغي أنْ يوقَف عِنْدَهُ فيها كما تَعْلَمونَ أنْتُمُ القُرْآنَ"[2].

الدّينُ يُؤْخَذ كلّه جملةً واحدةً، لا يُنتقى منه ولا يتجزّأ

نُكْتَة فصلِ جملة: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾:

جاءت جُملَةُ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ لأنّها واقِعَةٌ منها مَوْقِعَ بَدَلِ الاشْتِمالِ[3]، ما يعني أنّها فُصِلت عنها كما يُفصل التّابعُ عن المتبوع، فيما يُعْرَف بلاغيًّا بكمال الاتّصال، الذي تقوى فيه العلاقاتُ والرّوابطُ المعنويّة بين الجمل، لدرجةٍ تُغنيها عن

يـومُ التّـلاق سيشتمل على الجزاء العادل الذي لا ظُلمَ فيه

(1) في رواية الطبرانيّ: وإنّ أحدنا.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك: 1/ 35، وقال: على شرطهما، ووافقه الذّهبيّ، وذكره الهيثميّ في مجمع الزّوائد، برقم: (755)، وقال: رواه الطبرانيّ في الأوسط، ورجاله رجال الصّحيح.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

الرّوابط اللّفظيّة، والمعنى: أنّ يوم التّلاقِ سيشتمل على الجزاء العادل الذي لا ظُلمَ فيه.

معنى ﴿لَا﴾، وموقع الجملة بعدَها:

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ نافيةٌ للجنس، و﴿ظُلۡمَ﴾ اسمُها المبني على الفتح، و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرفٌ متعلّق بمحذوفٍ خبرها، والمعنى: أنَّ الظُّلم بكلّ أنواعِه وجميعِ أشكالِه لا وجودَ له في هذا اليوم، ومنفيٌّ حصولُه نفيًا لا شكَّ فيه، ولا ريبَ معه.

لا وجود للظّلم بكلّ أنواعِه وجميعِ أشكالِه يومَ الجزاء

معنى (أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمَۚ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ لتعريف العهد، وهي تدلُّ على أنَّ اليوم الخالي من الظّلم بكلّ أنواعِه ومقاديرِه هو يومُ الجَزاء، الذي تأتي هذه الجملة في سياق الحديث عنه، وفي سياق إقرار الجميع بأنَّ المُلك فيه لله ربّ العالَمين، كما يحكيه قولُه تعالى فيما سبق: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16].

اليوم الخالي من الظّلم بكلّ أنواعِه ومقاديرِه هو يومُ الجَزاء

فائدة التّعبير بالجملة الخبريّة:

كثيرًا ما يُعبّر البيانُ القرآنيُّ عند حديثه عن القيامة بصيغة الخبر أو الفعل الماضي، وقد جاء التّعبير بجملة: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ في سياق الحديث عن يوم الجزاء الواقعِ فيما يأتي منَ الزّمان بأسلوب الخبر؛ للدّلالة على أنَّه حاصلٌ حصولًا لا شكَّ فيه. كما أنَّ هذه الجملة تدلُّ بمفهوم المخالفة على أنَّ يوم الجزاء هو يومُ العدالة الحَقَّة التي لم يرَ النّاسُ مثلَها في حياتهم، وأنّه لا ظُلمَ فيه أبدًا، "بنقصِ ثوابٍ، ولا بزيادةِ عذابٍ"[1]. ولا تقتصر دلالةُ التّعبير على نفي الظّلم عن الله؛ بل تتّسع لتَدلّ على أنّ من معانيها أنّه لا يُقَرُّ ظالمٌ على ما بيده ممّا ظلمه؛ بل يُنتزَع منه ويُجزَى به.

عادةُ البيان القرآنيّ عند حديثه عن القيامة أنْ يُعَبِّرَ بصيغة الخبر أو الماضي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 271.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

اللهُ تعالى سريعٌ في محاسبة عبادِه ومُجازاتِهم

جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ "لأنّها واقِعَةٌ مَوْقِعَ التَّعْليلِ، لِوُقوعِ الجَزاءِ في هَذا اليوْمِ، ولِانْتِفاءِ الظُّلْمِ عَنْ ذَلِكَ الجَزاءِ"[1]، ما يعني أنّها فُصِلت عمّا قبلها لشبهِ كمالِ الاتّصال، الذي تُفصل فيه الجملةُ الثّانية عمّا قبلَها، كما يُفصل الجوابُ عن السّؤال.

نُكْتَةُ التّأكيد في فاصلة الآية:

ما يُسنَد إلى الله تعالى يكون على غير ما أَلِفَه النّاس وعَهِدوه

جيء بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مؤكدَةً بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة؛ لإزالة ما هو معهودٌ لدى المُتلقّين، وراسخٌ في عقولهم من أنَّ "استيفاءَ الخلائق بالمُجازاة أمرٌ لا يمكن في العادة ضَبْطُه، ولا يتأتَّى حِفظُه ورَبطُه، ما من شأنه أن يَبُثَّ في النّفوس القَلَقَ من خوف الجَوْر؛ فكان التّأكيد للإشارة إلى أنّ ما يُسنَد إلى الله تعالى يكون على غير ما أَلِفَه النّاسُ وعَهِدوه"[2]، ولتقويَةِ نَفْي الخوفِ والقَلَق من حصول الظّلم في هذا اليوم بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

غرض تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد المُشتقّ:

المُسنَدُ إليه المُقدَّمُ يدخل خَبرُه على القلب دخولَ المأنوسِ به المُطْمَأنِّ إليه

في جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قُدِّم المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على الخبر المشتَقّ: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ زيادةً في تقوية انتفاءِ الظّلم يومَ القيامة وتأكيدِه؛ وذلك أنَّ تقديم اسمِ الجلالة يُشعِر المُتلقّي بأنّ هناك ما يُراد الإخبارُ به عنه، وهذا الإشعار توطئةٌ له وتقدمةٌ للإعلام به، فإذا جيء بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ دخلَ على القلب دخولَ المأنوس به، وقَبِلَه قَبولَ المُتهيّئ له المُطْمَأنِّ إليه، وذلك أشدّ لثبوته، وأنفى للشّبهة، وأمنع للشّكّ، وأدخل في التّحقيق[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 132.

بلاغة إظهار الاسم الجليل في موضع إضماره:

أمـر الحساب سهلٌ على الله؛ لما له سبحانه من تمام القُدرة وشمولِ العِلْم

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (إنّه سريعُ الحساب)، ولكنَّ البيانَ القرآني عدلَ عن التّعبير بالضّمير إلى إظهار الاسم الجليل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ لما يُفيدُه الإظهارُ من التّعظيم والتّفخيم الدّالِّ على تمام القدرة وشمولِ العِلْم، مع الإشعار بسهولة الأمر على الله الذي يقدر على كلّ شيء، ولا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ولأنّ تفكُّرَ المُتلقّي فيما ورد من أمر الآخرة في الآيات، من شأنه أن يُؤَهّل ويُذْهِل، فاحتيج إلى تنبيهه بإظهار الاسم الجليل الأعظم له؛ ليَرُدّ ممّا جَرَّه الفكر إليه وجرى به نحوَه من أهوالٍ، ليُعادَ إلى التّلقّي ثانيةً.

نُكْتَةُ التّعبير عن الخبر بصيغة (فعيل):

الله تعالى لا يَشغلُه حسابٌ عن حساب، ولا يُلهيه شأنٌ عن شأنٍ

جاء النّظم الكريم بالخبر ﴿سَرِيعُ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مصوغًا بزنة (فعيل)؛ للدّلالة على أنَّ الله تعالى "بليغُ السّرعة في الحساب، فلا يَشغله حسابُ أحد عن حساب غيره في وقت حساب ذلك الغير، ولا يُلهيه شأنٌ عن شأن؛ لأنّه لا يحتاج إلى تكلُّف عدٍّ، ولا يفتقر إلى مراجعة كتابٍ ولا شيء"[1]، ممّا يجعل الحسابَ بطيئًا غيرَ سريع.

معنى (أل) في ﴿ٱلْحِسَابِ﴾:

الإخبار بحساب النّاس على أعمالهم ومجازاتهم عليها أمرٌ تكرَّر ذكرُه في القرآن الكريم

(أل) في ﴿ٱلْحِسَابِ﴾ للعهد، ما يعني أنَّ المراد به: الحساب على الأعمال التي عملها النّاس في الدّنيا بقصد مجازاتهم عليها بالعدل، والذي تحدّث القرآنُ عنه في أكثر من موضع، وأعْلَمَ النّاسَ بوقوعه وقوعًا مؤكّدًا، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: 1]، وقولُه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزلة: 7 - 8]، ولأنّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 29.

المرادَ الحسابُ الكامل الذي لا يدع المحاسَبين حتّى يفضيَ بهم إلى مصائرهم مسوقين، بعدما اقتُص لبعضهم من بعضٍ.

دلالة الإضافة:

في إضافة ﴿سَرِيعُ﴾ إلى ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ دلالةٌ على اختصاص الله تعالى بهذه السُّرعة، وعدمِ اتّصاف أحدٍ آخر بها، وفيه أيضًا: "ترجيَةٌ للفريقين وتخويفٌ؛ لأنّ الظّالم يخشى إسراعَ الأخذِ بالعذاب، والمؤمنَ يرجو إسراعَ البَسطِ بالثّواب"[1].

الإخبار بسُرعة الحساب فيه ترجيَةٌ للمؤمنين، وتخويفٌ للظّالمين

فائدة تذييل الآية بهذا الوصف:

في تذييل الآية بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تأكيدٌ لما سبق من كَوْن يوم التّلاق هو يومُ الجزاء العادل، الذي لا تشوبه شائبةٌ من الظّلم؛ لأنّ سُرْعَةَ الحساب تَقْتَضي سُرْعَةَ الحُكْم، وسُرْعَةَ الحُكْم تَقْتَضي تَمَلُّؤَ الحاكم مِنَ العِلْم بالحَقِّ، ومِنْ تَقْديرِ جَزاءِ كُلِّ عامِلٍ عَلَى عَمَلِهِ دونَ تَرَدُّدٍ ولا بَحْثٍ؛ لِأَنَّ الحاكِمَ عَلّامُ الغُيوب، فكانَ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ – بجانب ما سبق توضيحُه – تأكيدٌ لِجَميعِ ما تَقَدَّمَهُ في هذا الغَرَضِ[2].

سُرْعَةُ الحِساب تَقْتَضي سُرْعَةَ الحُكْمِ، والأخيرة تَقْتَضي تَمَلُّؤَ الحاكِمِ مِنَ العِلْمِ بالحَقِّ

فائدة التّعبير بأسلوب الخبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

مجيءُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ في صورة الخبر له فوائد جمّةٌ – فبجانبِ التّرجية والتّخويف الذي سبق ذكره – فيه دلالةٌ على أنَّ حصول الحساب والمجازاة على الأعمال في يوم التّلاق أمرٌ واقع لا محالةَ، من غير شَكٍّ ولا ريب، وفيه أيضًا: "إيماءٌ إلى أنَّ تَأْخيرَ القَضاءِ بالحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِ لِلْقاضي بدونِ عُذْرٍ ضربٌ من ضروب الجَوْرِ؛ لِأَنَّ الحَقَّ إنْ كانَ حَقَّ العِبادِ فتَأْخيرُ الحُكْمِ لِصاحِب

تَأْخيرُ القَضاءِ بالحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِ لِلْقاضي بدونِ عُذْرٍ ضربٌ من ضروب الجَوْرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 29، 30.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

الحَقِّ إبْقاءٌ لِحَقِّهِ بيدِ غَيْرِهِ، ففيهِ تَعْطيلُ انْتِفاعِهِ بحَقِّهِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمانِ، وذَلِكَ ظُلْمٌ، وقد يكونُ صاحِبُ الحَقِّ في حاجَةٍ إلى تَعْجيلِ حَقِّهِ لِنَفْعٍ مُعَطَّلٍ، أوْ لِدَفْعِ ضُرٍّ جاثِمٍ، ولَعَلَّهُ أنْ يهْلَكَ في مُدَّةِ تَأْخيرِ حَقِّهِ فلا ينْتَفِعُ بهِ، أوْ لَعَلَّ الشَّيْءَ المَحْكومَ بهِ يتْلَفُ بعارِضٍ أوْ قَصْدٍ، فلا يصِلُ إلَيْهِ صاحِبُهُ بَعْدُ. وإنْ كانَ الحَقُّ حَقَّ اللّه كانَ تَأْخيرُ القَضاءِ فيهِ إقْرارًا لِلْمُنْكِرِ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112، 113.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»